أى أســـبانيا !

للأديب حسين شوقى

أى اسبانيا ! إنى لأذرف دمعة صادقة على نكبتك لأنك وطنى الثانى ! ألم أقض طفولتى فى ربوعك أثناء الحرب العالمية حينما نفى إليك والدى ؟

أى اسبانيا ! أصحيح أن الموت والدمار نزلا بمدنك التى كانت رؤيتها بهجة للنفس ومتعة للنظر ؟

أى اسبانيا ! أصحيح أن المرء يستنشق رائحة البارود البغيضة من حقول بلنسية حيث كانت تعبق رائحة البرتقال ؟

أصحيح أن يد الدمار قد امتدت إلى غرف الحمراء حيث مرحت الأميرات العربيات فى شباب الدهر ، بين أحضان الترف والنعيم ؟

أصحيح أن كنائسك الفخمة قد أحرقت أو تهدمت ، وكانت مقصد النبيلات الاسبانيات — أيام فتوح شارل الخامس وفليب الثانى — للتضرع والصلاة ، كى ترد إليهن أزواجهن من الحرب سالمين مظفرين ؟ . .

أى اسبانيا ! أصحيح أن قومك الذين كانوا بالأمس مضرب الأمثال فى اللطف والدعة وإكرام الضيف والترحيب بالغريب جن جنونهم بغتة ، كأنهم أصيبوا بداء الصرع ، فأخذوا يقتلون يمنة ويسرة ؟

أصحيح أن قلوبهم غاظت إلى حد أنهم يقطعون أيدى الحسان الناعمة كى يسلبوها حليها ، تلك الأيدى التى ماخلقت إلا للتدليل والتقبيل ؟

أصحيح أنهم سئموا مصارعة الثيران فاستبدلوا بها الأنفس البشرية ؟

أى اسبانيا ! أين كانت كامنة هذه القسوة ؟

بل من أين هبطت عليك ؟

إن بعض الكتاب الغربيين ينسبها إلى الدم العربى الذى يجرى فى عروق الاسبان اليوم ، ولكن الله يشهد أن هذا الدم برىء ، لأنه دم أموى نبيل ! إن أسلافنا العرب الذين استوطنوا الأندلس كانوا أبطالا ولم يكونوا أنذالا ، انهم لم يقتلوا العجزة والأطفال والنساء !

بل إن العرب فقدوا ثمار فتوحهم العظيمة بما كانوا يبدون من الحلم المتناهى إزاء الشعوب المغلوبة ! ألم يتركوا لها حرية العقائد والعادات ، مكتفين بأخذ الجزية ؟

إذن ما مصدر هذه القسوة ؟

إن « أنامونو » الفيلسوف الأسبانى الشهير الذى توفى أخيراً ينسبها إلى دم النور (بفتح الواو) المنتشرين بكثرة فى ربوع أسبانيا ، وبخاصة فى الجنوب ، لأن هؤلاء القوم لهم — على حد زعمه — غرائز بعيدة عن المجتمع ، بل وحشية . ومما يؤيد قوله هذا ما حدث فى برشلونة من أعمال القتل والحرق والسلب فقد قام بمعظمها عمال من الجنوب لم يستوطنوا برشلونة إلا فى السنوات الأخيرة . . .

أى اسبانيا ! أصحيح أن حسانك قد ملأن أقنعة رءوسهن الجميلة من « الدانتلا » والمعروف « بالمانتليا » ففضلن عليها خوذة الجند الحديدية ؟

أصحيح أنهن حطمن بأيديهن تماثيل العذراء التى طالما توسلن إليها كى ترقق لهن قلب العاشق النافر ؟

أصحيح أنهن أصبحن يقتلن بالحديد والنار بعد ما قتلن زمنا بسهام اللواحظ وحد الجفون ؟

أصحيح أنهن سئمن أناشيد الحب فأخذن يحرضن خطابهن الرشيقين ذوى العيون العربية البراقة على الذهاب إلى ساحات الموت ؟

أى اسبانيا ! أصحيح أن قومك يهدمون مآثر ماضيهم المجيد بزعم التقدم والرقى ؟

رب ! كيف تمحى قرون متتابعة من العز والفخار ؟ هل من المدنية أن تدفن المتاحف وتنسف الآثار ؟

ألا ينظرون إلى حسرة أبناء العالم الجديد لافتقارهم إلى الآثار وهم قدوة المدنية والتقدم ؟

ألا يرون كيف ينقل هؤلاء القوم الكنائس والقصور الأثرية من أوروبا ، حجراً حجراً ، لاعادة تركيبها فى بلادهم ، رغم ما يكلفهم عملهم هذا من جهد ومال ؟

أى سرفانتس (١) ! هلا تركت ضجعتك الهنيئة الأبدية لحظة لتشاهد مقدار عبث قومك ؟

أى سرفانتس ! إن صاحبك « دون كيخوت » لأقل جنونا من هؤلاء القوم جميعا إذ جنونه برىء لا يتعدى مهاجمة الخراف والطواحين ، أما هؤلاء فلا يهدأ لهم بال إلا بقتل الأطفال والنساء والاخوان من بنى جلدتهم !

« كرمة ابن هانى »

حسين شوقى

(١) مؤلف قصة « دون كيخوت » الخالدة